أسباب جديدة

لاحظنا، منذ زمن غير يسير، ان تصريحات عدد من القادة الصهيونيين ومفكّريهم تكاد تكون منقولة، حرفياً، عن تصريحات لشخصيات خيالية، خلقها أدباء الاستيطان الصهيوني. فحين يكتب روائي من هؤلاء «لمدة ألف عام كان هذا المكان قفراً، الى ان جاء مستوطنونا الاوائل ونصبوا خيامهم، فجعلوا الصحراء تزهو بأحدث الوسائل الزراعية...»، ينتقل هذا الخيال الى سياسية مثل غولده مئير، فتصرح بثقة: «الفلسطينيون لم يوجدوا أبداً...»!

وتمنع الرقابة عرض مسلسل تلفزيوني مأخوذ عن رواية يزهار سميلانسكي «خربة خزعة» لسبب وحيد هو ان هذه الرواية تحكي قصة اقتلاع سكان قرية فلسطينية، ونشر مثل هذه الحكاية يعني، ببساطة، انه كان هنالك فلسطينيون.

ومنذ وقت قريب، قال الروائي عاموس عوز لـ «الصنداي تايمز» اللندنية: «ان اسرائيل ربما هي البلد الوحيد الذي تلتقط فيه افتتاحيات صحفها شخصية روائية وتجادلها...» وكان يشير بهذا الى ما اثارته روايته «صندوق أسود» من ردود فعل على الصعيد الاعلامي.

ولعلّ هذا التبادل، او تعاطي التخيّل، بين السياسي والأديب في هذا الكيان الاستيطاني هو سبب ما يظهر من تناقضات حالياً في اتجاه كان يفترض انه واحد، ورؤية كان من المفترض ان تكون شاملة؛ ليس لأن السياسي توقف عن أخذ مقولاته من افواه الشخصيات الخيالية، ولا لأن الاديب توقف عن المغامرة الخيالية وتغذية السياسي، بل لأن الاثنين وقعا في أزمة متعددة بدأت بالظهور في اعقاب العام ١٩٧٣، وتصاعدت الى ذروتها بعد العام ١٩٨٢ في ضوء الهزيمة التي عانتها الخيالات الصهيونية في الجنوب اللبناني؛ وها هي تنتقل الى مستوى جديد مع عودة الصراع الواقعي الى نقطة البداية بين شعب فلسطين والمستوطنين.

لا مكان للفلسطيني في الخيال الصهيوني، سواء سياسياً كان أم ادبياً. وعلى هذه القاعدة، كُتبت عشرات الروايات، وبُنيت الاستراتيجيات، وتمّت تربية الاطفال. بعبارة اشمل، لا مكان للواقع في سياق الاوهام الغيبية عن الأرض الخربة وبداية التكوين الذي بدأه المستوطن القادم من صقيع اوروبا ووسطها؛ ولكن اتضاح هذا الواقع، زماناً ومكاناً، يقلب الخيال رأساً على عقب.

السياسي الذي تغذّى بالتاريخ الذي ترويه التوراة، والاديب الذي تغذّى بالمصدر نفسه، يجد كلاهما نفسه ازاء تحدّ متطاول. وقد يشتبكان حين تظهر الايديولوجية كم هي متحجرة. فقد استدار يهودا عميحاي الشاعر عن غيبيات التوراة في سبيل الركون الى واقع ملموس بحياته كاسرائيلي. وحذّر الهنغاري كوستلر من ان الحجر الاساس للاستيطان لن يكون، بعد اليوم، هذه النظريات عن «نقاء العرق» والاستمرار، بل على حق الاستيطان، او ما سمّاه «الريادة وقرار الامم المتحدة»!

وللقراء الغربيين طوّر عاموس عوز موقفه قليلاً، وهو يحاول البحث عن اسباب جديدة في فلسطين واصراره على البقاء فيها. وأسبابه الجديدة ليست «روحية»، بل «مادية عضوية». انه، على حدّ تعبيره، يحسّ بالمكان، والمكان صليبه: «المكان هو أنا... وما أنا عليه دائماً»؛ او «شروق الشمس وغروبها والرياح والاشجار والغبار... والضوء والظلام أشياء أساسية في عالمه... انه يتنفسها...».

لهذا السبب قام جدل الوسط الصهيوني، وحاول كاتب مثل عوز اطلاق عدد من الشخصيات متعددة الرؤيا في رواياته. انه يدعو الى اغناء الفكرة الاستيطانية القديمة بالبحث عن بديل للغيب اللاهوتي، واعطاء الفكرة مُستَنَداً اكثر قوة من هشاشة الاوائل، اولئك الذين اتخموا انفسهم